المحاضرة التاسعة: الخوارج

أولا/ المفهوم

الخَوارِجُ في اللُّغةِ جمعُ خارِجٍ، والخارِجيُّ اسمٌ مُشتَقٌّ من الخروجِ، وقد أطلق عُلَماءُ اللُّغةِ كَلِمةَ الخَوارِجِ في آخِرِ تعريفاتِهم اللُّغويَّةِ في مادَّةِ (خرج) على هذه الطَّائفةِ من النَّاسِ، مُعَلِّلين ذلك بخروجِهم عن الدِّين، أو على عليٍّ رَضِيَ اللهُ عنه، أو لخُروجِهم على النَّاسِ عُمومًا .
قال الأزهريُّ: (الخَوارِجُ: قومٌ من أهلِ الأهواءِ لهم مقالةٌ على حِدةٍ) .
وقال الزَّبيديُّ عنهم: (هم الحَروريَّةُ، والخارِجيَّةُ طائفةٌ منهم، وهم سَبعُ طوائِفَ، سُمُّوا به لخروجِهم على النَّاسِ، أو عن الدِّينِ، أو عن الحَقِّ، أو عن عليٍّ كرم اللهُ وَجهَه بَعدَ صِفِّينَ).
وفي التَّعريفِ الاصطِلاحيِّ للخَوارِجِ:
1- منهم من عرَّفهم تعريفًا سياسيًّا عامًّا: فاعتبر الخروجَ على الإمامِ المتَّفَقِ على إمامتِه الشَّرعيَّةِ خُروجًا في أيِّ زمنٍ كان.
قال الشَّهرَستانيُّ: (كُلُّ من خرج على الإمامِ الحَقِّ الذي اتَّفقت الجماعةُ عليه يُسَمَّى خارِجيًّا، سواءٌ كان الخروجُ في أيَّامِ الصَّحابةِ على الأئمَّةِ الرَّاشِدين، أو كان بَعدَهم على التَّابِعين لهم بإحسانٍ، والأئمَّةِ في كُلِّ زمانٍ) .
2- منهم من خصَّهم بالذين خرَجوا على عليٍّ رَضِيَ اللهُ عنه:
قال الأشعَريُّ: (السَّبَبُ الذي سُمُّوا له خَوارِجَ خروجُهم على عليِّ بنِ أبي طالبٍ).
3- بَيَّن ابنُ حزمٍ أنَّ اسمَ الخارِجيِّ يَلحَقُ كُلَّ من أشبه الخارِجين على عليٍّ رَضِيَ اللهُ عنه، أو شاركهم في آرائِهم في أيِّ زمنٍ.
4- عرَّفهم بعضُ عُلَماءِ الإباضيَّةِ بأنَّهم: طوائِفُ من النَّاسِ في زمَنِ التَّابِعين وتابِعِ التَّابِعين، أوَّلُهم نافِعُ بنُ الأزرَقِ .

وهذا التَّعريفُ لأبي إسحاقَ أطَّفَيّشَ يريدُ منه أنْ لا علاقةَ بَينَ المُحَكِّمةِ الأولى -الذين لا يعتَبِرُهم خَوارِجَ؛ لشرعيَّةِ خُروجِهم كما يزعُمُ- وبَينَ مَن بَعدَهم إلى قيامِ نافعٍ سَنةَ 64هـ. وهذا التَّعريفُ غيرُ مقبولٍ حتَّى عِندَ بعضِ عُلَماءِ الإباضيَّةِ.

والتَّعريفُ الثَّاني مشى عليه بعضُ عُلَماءِ الفِرَقِ في تعريفِهم بفرقةِ الخَوارِجِ، وقيامِ حركتِهم ابتداءً من خروجِهم في النَّهرَوانِ، وهو ما يتَّفِقُ أيضًا مع مفهومِ الخَوارِجِ كطائفةٍ ذاتِ أفكارٍ وآراءٍ اعتقاديَّةٍ أحدَثت في التَّاريخِ الإسلاميِّ آثارًا كبيرةً.

إذًا الخَوارِجُ بتعريفٍ عامٍّ: (كُلُّ من خرج على الإمامِ، وعلى الجماعةِ المُسلِمةِ بالسَّيفِ للدُّعاءِ إلى مُعتقَدِه، وكان خروجُه نابعًا من مخالَفةِ الأصولِ في الشَّريعةِ)، فهذا التَّعريفُ أقربُ لتعريفِ الخَوارِجِ كفرقةٍ من الفِرَقِ، أمَّا من خرج لغيرِ ذلك ممَّا تقدَّم فيُطلَقُ عليهم اسمُ الخُروجِ العامِّ، ويُطلَقُ عليهم خَوارِجُ كحُكمٍ شَرعيٍّ، وصِفةٍ لفِعلِهم.

ثانيا/ الإطار التاريخي لفرقة الخوارج

القَولُ الذي عليه جمهور العلماء والمؤرخين أنَّ نشأةَ الخَوارِجِ بدأت بانفصالِهم عن جيشِ عَليٍّ رَضِيَ اللهُ عنه وخروجِهم عليه، وهذا الرَّأيُ هو الذي عليه الكثرةُ الغالبةُ من العُلَماءِ؛ إذ يُعَرِّفون الخَوارِجَ بأنَّهم هم الذين خرجوا على عَليٍّ رَضِيَ اللهُ عنه بَعدَ التَّحكيمِ، ومن هؤلاء الأشعَريُّ؛ فقد أرَّخ للخَوارِجِ ، وقال عنهم: (السَّبَبُ الذي سُمُّوا له خَوارِجَ: خروجُهم على عليّ بن أبي طالب) .

وقد تابعه في ذلك البغداديُّ؛ حيث بدأ التَّأريخَ للخَوارِجِ بذِكرِ الخارِجين على عَليٍّ رَضِيَ اللهُ عنه، وكذلك يرى أبو الحُسَينِ المَلَطيُّ أنَّ الفِرقةَ الأولى للخَوارِجِ هي المُحَكِّمةُ ، وقد سار على هذا الرَّأيِ أصحابُ المعاجِمِ ودوائِرِ المعارفِ (في مادَّةِ الخروجِ)، والكُتَّابُ المُحْدَثون الذين كتَبوا عن الفِرَقِ الإسلاميَّةِ؛ كأحمد أمين، وأبي زهرةَ، والغُرابيِّ، والمؤرِّخون في تأريخِهم لأحداثِ الفِتنةِ الكُبرى.

قال أحمد أمين: (اسمُ الخَوارِجِ جاء من أنَّهم خرَجوا على عليّ و أصحابه.

وقال أبو زهرةَ عن الخَوارِجِ: (اقترن ظُهورُ هذه الفِرقةِ بظُهورِ الشِّيعةِ؛ فقد ظهر كِلاهما كفِرقةٍ في عهدِ عَليٍّ رَضِيَ اللهُ عنه، وقد كانوا من أنصارِه)

وصاحِبُ كتابِ (الأديان) -وهو كاتِبٌ إباضيٌّ (مجهول)- يَعتبرُ خروجَ الخَوارِجِ إنَّما كان وقد أصبح إطلاقُ اسمِ الخَوارِجِ على الخارِجين على عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عنه أمرًا مُشتَهِرًا، بحيثُ لا يكادُ ينصَرِفُ إلى غيرِهم بمجَرَّدِ ذِكرِه .

تلك هي الأقوالُ في بدءِ نشأةِ الخَوارِجِ، وينبغي عِندَ اختيارِ القَولِ الأصَحِّ منها التَّفريقُ بَينَ بدءِ نزعةِ الخروجِ على صورةٍ ما، وظهورِ الخَوارِجِ كفِرقةٍ لها آراؤُها الخاصَّةُ، ولها تجمُّعُها الذي تحافِظُ عليه وتعمَلُ به على نُصرةِ تلك الآراءِ.

والواقِعُ أنَّ نَزعةَ الخروجِ قد بدأت بَذْرتُها الأولى على عهدِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم باعتراضِ ذي الخُوَيصِرةِ عليه، لكِنْ هل كان خروجًا حقيقيًّا أم كان مجرَّدَ حادثةٍ فرديَّةٍ اعترض فيها واحِدٌ من المُسلِمين على طريقةِ تقسيمِ الفَيءِ؛ طَمَعًا في أن يأخُذَ منه نصيبًا أكبرَ.

ثالثا/ أهم الآراء والأفكار

سوء الفهم لمراد الله ورسوله صلى الله عليه وسلم أصل بدعة الخوارج، فهم لم يقصدوا مخالفة الكتاب، ولكن فهموا منه ما لم يدل عليه، يقول شيخ الإسلام في "المجموع" (13/30-31) : "وكانت البدع الأولى مثل (بدعة الخوارج) إنما هي من سوء فهمهم للقرآن، لم يقصدوا معارضته، لكن فهموا منه ما لم يدل عليه؛ فظنوا أنه يجوب تكفير أرباب الذنوب؛ إذا كان المؤمن هو البر التقي. قالوا: فمن لم يكن براً تقياً؛ فهو كافر، وهو مخلد في النار."

ثم قالوا: وعثمان وعلي ومن والاهما ليسوا بمؤمنين؛ لأنهم حكموا بغير ما أنزل الله، فكانت بدعتهم لها مقدمتان:

(الواحدة): أن من خالف القرآن بعمل أو برأي أخطأ فيه؛ فهو كافر.

(والثانية): أن عثمان وعلياً ومن والاهما كانوا كذلك.

ولهذا يجب الاحتراز من تكفير المسلمين بالذنوب والخطايا؛ فإنه أول بدعة ظهرت في الإسلام، فكفر أهلها المسلمين واستحلوا دماءهم وأموالهم، وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث صحيحة في ذمهم والأمر بقتالهم.

زعم الخوارج فقالوا بتكفير علي وعثمان وطلحة والزبير وعائشـــة وأصحاب الجمل وبتكفير معاوية والحكمين وتكفير أصحاب الذنوب من هذه الأمة وما زادوا على ذلك حتى ظهرت الأزارقة منهم، فزعموا أن مخالفيهم مشركون وكذلك أهل الكبائر من موافقيهم واستحلوا قتل

النســـاء والأطفال من مخالفيهم وزعموا بأنهم مخلّدون في النار وكفروا القعدة منهم عن الهجرة إليهم.

"ولهم أي: الخوارج خاصتان مشهورتان فارقوا بهما جماعة المسلمين وأئمتهم:"

أحدهما: خروجهم عن السنة، وجعلهم ما ليس بسيئة سيئة، أو ما ليس بحسنة حسنة، وهذا هو الذي أظهروه في وجه النبي صلى الله عليه وسلم؛ حيث قال له ذو الخويصرة التميمي: اعدل؛ فإنك لم تعدل، حتى قال له النبي صلى الله عليه وسلم: (ويلك! ومن يعدل إذا لم أعدل؟ لقد خبت وخسرت إن لم أعدل) ...

الفرق الثاني في الخوارج وأهل البدع: أنهم يكفرون بالذنوب والسيئات، ويترتب على تفكيرهم بالذنوب استحلال دماء المسلمين وأموالهم، وأن دار الإسلام دار حرب، ودارهم هي دار الإيمان "

رابعا/ مصادر التلقي وآليات الاستدلال عند الخوارج

1ـــ يعتمد الخوارج في تقرير أصولهم على ظواهر النصوص القرآنية، ويردون من السنة ما خالف - بزعمهم - ظاهر القرآن، بل يعدلون عن السنة المتواترة إذا كانت تخالف هذا الظاهر.

2ـــ تركهم واجب اتباع السنة، ولا يرون اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم واجباً.

3ـــ تفسير القرآن بفهمهم وآرائهم: لم يقف الأمر عند اتباع القرآن دون اتباع السنة فحسب، بل تعداه إلى تفسير القرآن بفهمهم وآرائهم وأهوائهم، لا سيما نصوص الوعيد؛ حيث غالوا وشططوا في فهمهم.

4ـــ وأيضاً فإن الخوارج كانوا ينتحلون اتباع القرآن بآرائهم، ويدعون اتباع السنن التي يزعمون أنها تخالف القرآن، والرافضة تنتحل اتباع أهل البيت، وتزعم أن فيهم المعصوم الذي لا يخفى عليه شيء من العلم، ولا يخطئ؛ لا عمداً، ولا سهواً، ولا رشداً.

الخلاصة

لم يكن للخوارج كتب مصنفة في أصول بدعتهم وتفريعاتها؛ بل تبقى فكرتهم قائمة في عقولهم، ينظِّرونه، ويؤصِّلونها على أساس بدعي حركي فكري مما يخدم بدعتهم في تكفير المسلمين وإلزامهم بهذا اللازم الفاسد؛ ولهذا يصعب تمييزهم في بداية ظهورهم حتى تكون لهم الأرضية

التي ينطلقون منها لتحقيق بدعتهم، بخلاف سائر الفرق الأخرى التي لها كتب مصنفة في تقرير اعتقادها، ومن ثمّ يتمكن أهل الاتباع من تمييزهم والتعريف بهم وببدعتهم.

المراجع

1 ــ الشهرستاني: الملل والنحل، مؤسسة الحلبي، سوريا، دت

2ـ اليافعي، ذكر مذاهب الفرق الثنتين وسبعين المخالفة، تح: موسى الدويس، دار البخاري للنشر و التوزيع، المدينة المنورة، ط1، 1410ه

2 ــ لإمام عبد القاهر بن طاهر التميمي البغدادي، أصول الدين، مدرسة الإلهيات بدار الفنون التركية ،تركيا اسطنبول ،الطبعة الأولى: 1346 هـ- 1928 م.

.